دور السياسة الاستعمارية في إضعاف قوة المقاومة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر.

أ. د محمد دادة****

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح التأثير الذي لحق بالمقاومة الجزائرية إثر تعاون العناصر الجزائرية مع العدو الاستعماري خلال فترة القرن التاسع عشر (19م). ومن المعلوم أن فرنسا سخرت جهدا عسكريا عظيما للقضاء على المقاومة وإخضاع السكان، ولكن هذا الجهد لم يكن كافيا للسيطرة على المناطق الثائرة، ولهذا ستلجأ الإدارة العسكرية إلى خلق جهاز فعال تعتمد عليه في محاربة الثوار، وسيحقق ذلك نجاحات مهمة لها سواء في ميادين القتال والمعارك أو في مجال الاستخبار والاستعلام.

إن هذا الجهاز يتمثل في تجنيد الجزائريين ضد المقاومة؛ فكان منهم الأشخاص الذين كانوا مستعدين للتعامل مع الفرنسيين بأي ثمن، وكذلك العائلات والجماعات التي كانت مستعدة طبيعيا لخدمتهم نظرًا لدورها التقليدي في خدمة النظام السابق.

ومما لا شك فيه أن عنصر التعاون مع العدو يشكل إحدى المعطيات التي يتشكل منها التاريخ الجزائري أثناء هذه المرحلة، ولن نستطيع في الواقع أن نلم إلماما كافيا بهذا التعاون، وإنما سنكتفي بإلقاء بعض الضوء على هذا الدور الذي قام به عدد من الجزائريين أو الجماعات لأسباب مختلفة، وسنقوم بتوضيحه لاستخلاص كل الدروس مهما كانت قاسية ومؤلمة، فلا يجب أن نتغافل عنه، ونسدل الستار عليه، بل نكشف عنه لمصلحة الحقيقة التاريخية.

كان من الصعب على فرنسا بعد احتلالها للجزائر أن تفرض سيطرتها على داخل البلاد، وبخاصة في إقليمي وهران وقسنطينة، ولقد اكتفت في فترة من الزمن باحتلال النقط الساحلية، وحاولت العثور على رؤساء من البلاد، يعترفون لها بالسيادة على تلك المناطق الداخلية، ولكنها فشلت في محاولاتها نتيجة مقاومة الجزائريين للتوغل العسكري الفرنسي داخل بلادهم، وتصميمهم على الاستمرار في هذه المقاومة بقوة السلاح.

****- أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة وهران..

كما طرحت مشكلة إدارة السكان بعد فترة قصيرة من الاحتلال للقيادة العسكرية التي كانت تنقصها معلومات حول الأحوال العامة للبلاد، ولاسيما أحوال المقاومات في مختلف الجهات، ولكن ونظرًا لنقص الخبرة لجأت الإدارة إلى الشخصيات المحلية ذات النفوذ الكبير بالتعاون مع ضباط المكاتب العربية[1].

وأدرك الفرنسيون منذ البداية أن ازدياد المقاومة الشعبية سيمنعهم من التوسع في المشاريع الاستعمارية، ولذا عملوا على استغلال الأوضاع القائمة في البلاد، واستخدام وسائل من شأنها أن تجرد السكان من وسائل الدفاع المادية والمعنوية، وقد نصح الضابط "وليس استرهزي" (WALSIN-ESTERHAZY) بالاعتماد على سياسة النظام القديم التي كانت وسائله ناجعة في إخضاع الجزائريين والقضاء على المقاومة، وذلك حينما اصطنع النظام العثماني قبائل المخزن ومنحها امتيازات وإعفاءات وسلطها على القبائل العاصية أو الثائرة[2].

ومن جهة أخرى، لفت الضابط لاباسي (Lapasset) الانتباه، إلى حكم العثمانيين الذي استغرق ثلاثة قرون، لم يكن يعتمد إلا على قوات قليلة، وكان قد استعان بقبائل المخزن التي هي خير وسيلة للتحكم في الأوضاع الأمنية، وأشار "لاباسي" إلى إمكانية الإدارة أن تدعم قبائل المخزن أكثر مما دعمها النظام السابق، وذلك حسب قوله "بالاعتماد على نخب شجاعة من الأهالي الذين يامكاننا ربطهم بمجموعة من المصالح، إذ نساعدهم على فعل عمل الشرطة ومراقبة القبائل الثائرة علينا، ونسمح لهم على أن يصبحوا المروجين ودعاة لأفكارنا، ونربطهم بمصالح الحكومة الفرنسية التي تمنحهم بعض الامتيازات، وهذا كله حتى يردوا العدوان علينا"[3].

وهكذا، لم يكن للحكومة الفرنسية استعداد لتعبئة كل إمكاناتها في توفير الجند وتكاليف الحرب، ولهذا حاولت استغلال الوسائل السياسية التي لا تكلف كثيرا[4]، وهذا ما كان يهدف إليه وزير الحربية المارشال سولت (Soult) عندما أعطى التعليمات لضابطه في الجزائر للقضاء على المقاومة الجزائرية، حيث نصح القادة العسكريين في مختلف النواحي بالاتفاق والتعاون مع رؤساء القبائل، قصد التوسع في الاستعمار والقضاء على الثوار، من ذلك قوله: "يجب عليكم أن لا تعاملوا مع الأمير عبد القادر، ولكن يجب عكس ذلك الاتفاق مع رؤساء الأهالي بطريقة يمكن لفرنسا أن تمد نفوذها تـــدريجيا في الجـــزائر..."[5].

كانت فرنسا تهدف من وراء هذه السياسة إلى قطع الصلة بين القبائل الجزائرية وبين المقاومة، وذلك بمنع أي تعاون يحصل بين الثوار والسكان، كما كانت تهدف إلى التخلص من أي زعيم جزائري، لأن نجاح الاستعمار مرتبط بالقضاء على الزعامة المحلية، وبخصوص هذه السياسة قال الضابط ريشار (Richard): "إذا تمكنا من أن نقسم السكان إلى معسكرين متحاربين ومتعادين؛ فإننا نستطيع إذ ذاك أن نضع حدًّا فاصلا ومانعا بين مجموعتين من السكان، هي وحتى الآن موحدة ومتضامنة لمحاربتنا"[6].

وهذا ما سعت إليه فرنسا منذ البداية من خلال استقطاب العائلات الجزائرية، مستغلة الخلافات التي كانت بين أفراد زعمائها؛ فمثلا في إمارة المقرانيين نجح الفرنسيون في خلق معسكرين اثنين من عائلة المقراني هما: معسكر أولاد عبد النور ومعسكر أولاد عبد السلام[7]، وكذلك استخدم الماريشال فالي (Valee) هذا الأسلوب لمقاتلة أحمد باي، مستغلا الصراع القديم الذي كان بين عائلة ابن قانة وعائلة بوعكاز[8]، حيث كان فرحات بن السعيد قد عرض على الماريشال اقتراحا للتحالف معه؛ فطلب إليه أن يعترف به كشيخ للعرب، وأن يمده بالجيوش لمحاربة الباي وحلفائه من ابن قانة[9].

كما نجد هذا الأسلوب في إقليم وهران، حيث جندت قبائل المخزن ضد الأمير عبد القادر، وفي مقدمتهم قبيلة الدوائر والزمالة بقيادة مصطفى بن اسماعيل وابن أخيه المزاري؛ فهذا العداء أجبر مصطفى بن اسماعيل على أن يكون عميلا للفرنسيين، حيث اقترح في شهر مارس 1835م على الجنرال تريزل (Trezel) أن يقوم هو على رأس الدوائر والزمالة، وبمساعدة الكراغلة بمهاجمة الأمير عبد القادر[10].

ونلاحظ أن المستعمر استفاد من هذا التصدع والنزاع بين الإخوة لضرب المقاومة، إذ أخوف ما يخافه هو تحقيق تلك الوحدة التي ستعجّل لا محالة بنهاية الاستعمار، لذلك نجد فرنسا طوال القرن التاسع عشر تسعى إلى تحقيق هذه السياسة، وبخاصة مع مجيء ماك ماهون (Mac.Mahon) إلى الجزائر سنة 1864م، ومحاولته القضاء على المقاومة الجزائرية بالاعتماد على الأعوان الجزائريين الموالين للإدارة الفرنسية.

ولم يتردد لويس رين (L.Rinn) في إبداء ملاحظاته بكل وضوح بشأن نوع الخدمات التي قدمها هؤلاء للغزاة الفرنسيين، حيث قال: "لم نكن في حاجة لا إلى رجال الإدارة، ولا إلى موظفين، بل كنا في حاجة إلى الحلفاء من ذوي الجاه والسلطان، أي إلى أشخاص يمكن بما لهم من شخصية ومن حسب ونسب، أن يكونوا خير رسل لنا لدى الأهالي الذين استطاع الأمير عبد القدر أن يؤثر فيهم باسم الإسلام، وقد يكون من السخف بمكان أن نتوقع من هؤلاء الحلفاء الذين لم نكن نحلم بهم إذ عرضوا علينا فتح مناطق لم نكن نعرفها..."[11].

هذا ما قام به "بيجو" حين وصوله إلى الجزائر سنة 1841م، عندما أعلن ضرورة القضاء على المقاومة الجزائرية، وشرح أن الغزو العسكري غير ذي فائدة ما لم تصحبه حركة تكون أهدافها تشتيت شمل الجزائريين، وكان قد أدرك أن قوة الأمير عبد القادر تكمن بالإضافة إلى جيشه النظامي، في التفاف القبائل حوله في حربه ضد الفرنسيين. ولهذا كان اعتماد "بيجو" على الأعوان الجزائريين لتشتيت صفوف القبائل.

وكان هذا الأسلوب يعد وسيلة ناجحة لمراقبة تحركات المجموعات الثائرة، ومصادر تموينها، وكذا مراقبة الأفراد والجماعات المتعاونة مع الثوار، قال "بيجو" متحدثا عن هذه الوسيلة: "إن استعانتنا بهؤلاء الأعوان، يعد وسيلة ناجحة لتعيين مواقع الثوار، وبذلك نتمكن من حصارهم والقبض عليهم بكل سهولة، كما أن هذه الوسيلة تساهم في المحافظة على الأمن العام، والمحافظة على ازدهار التجارة...، إن هؤلاء الأعوان لهم مهمة مراقبة المغنين المتجولين الذين يحرضون ضدنا الأهالي بنشر أفكار مغرضة ضد وجودنا في البلاد"[12].

وفي الحقيقة، لقد اتسعت أهداف الفرنسيين من توظيف الأعوان، إذ فعلوا ذلك ليتمكنوا أيضا من معرفة طبائع السكان لاستغلالها في السيطرة على السكان وضرب المقاومة، قال سيروكا (Seroka) أحد الذين عملوا على رأس المكاتب العربية بالجنوب (بسكرة) خلال الفترة ما بين 1848–1855م: "إن معرفة خلفيات العائلات المهمة في هذه البلاد، وعداوتهم، وصداقتهم وتراثهم يجعلنا قادرين على حكمهم.."[13].

كانت الحكومة الفرنسية تدفع لهؤلاء الأعوان مبالغ البلاد، كانت في الغالب تخرجها من ميزانية الدولة، لاسيما في عهد الإمبراطورية الثانية (1852–1870م)، وقد قدرها وارني (Warnier) بـ21 فرنكا للرأس الواحد[14]، في حين قدرها بوديكور (Baudicour) في السنة الواحدة على النحو الآتي[15]:

- اخليفة: حوالي 18000 فرنك.
- الباشاغا: حوالي 10000 فرنك.
- الأغا (المرتبة الأولى): حوالي 8000 فرنك.
- الأغا (المرتبة الثانية): حوالي 6000 فرنك.
- الأعوان من الدرجة الثالثة: حوالي 4000 فرنك.

وأما القياد والشيوخ، فكانت الإدارة تدفع لهم قسما من الضرائب العربية، كما كانت لهم حصة من الغرامات، تقدر بـ 3/10 و1/10 على الغرامات المفروضة على السكان، علاوة على المزايا والامتيازات التي تمنح لهم عند استجابتهم للسلطات الفرنسية[16].

هكذا وبفضل الامتيازات التي حصل عليها هؤلاء الأعوان أصبح لهم وضعا اجتماعيا متميزا، وكانت خدماتهم مهمة وكبيرة للسلطة الفرنسية، من حيث تجنيدهم ضد المقاومة في ميادين القتال والمعارك، وفي

مجال الاستخبار والاستعلام على رجال المقاومة وتنقلاتهم، وخططهم وإمكاناتهم ووسائلهم، والمؤيدين لهم والمعارضين والمموّنين.

وكان دور هؤلاء الأعوان خطرًا على المقاومة، ساعد الفرنسيين وخدمهم خدمة كبيرة.

ويمكن أن نذكر على سبيل المثال ثورة المقراني (عام 1871) التي جندت لها فرنسا مجموعة كبيرة من الأعوان حيث كانت خدماتهم واسعة وفعالة في التأثير على الثورة. والدليل على ذلك الرسائل الكثيرة التي أرسلها هؤلاء الأعوان إلى القادة الفرنسيين، والتي تشير صراحة إلى نشاطهم في مقاومة الثورة ورجالها وقادتها، سواء في المعارك أو في مجال الاستعلام والاستخبار. وتشير الوثائق كثيرا إلى الآغا بوزيد الذي مثل عقبة كبيرة ضد ثورة المقراني في منطقة سور الغزلان والبويرة. فقد حرص هذا المتعاون على تزويد القيادة الفرنسية بأخبار الثورة منذ بدأت إلى أن انتهت.

ومما قاله في إحدى رسائله إلى حاكم سور الغزلان يوم 27 مارس 1871، وهو يقترح فيها مؤامرة ضد الثوار الذين عبروا عنهم "بالمنافقين": "وبعد تراني نبين لك ما خطر ببالي أنا أريد نجعل مكيدة للمنافقين بمشورتكم (...) نعم سيدي قد طلع مرارا هذا المفسدين على قلوبنا وتشوشت عموم الناس على غير فائدة، أولاد الحرام استهانوا الحكم ويريدون دحضه"[17].

وقال المتعاون نفسه في رسالة أخرى إلى الحاكم نفسه، وهو يتحدث عن تنقلات المقراني بالمنطقة (27 أبريل 1871) ما يلي: "وبعد سيدي كنت أخبرك بكتاب غير هذا باشا أغا مجانة بات عند بني مدرور وطلبوه أولاد لغزيز يدخل بلادهم مراهم التعرض للمحلة والغزو على أولاد بليل فكان الأمر كذلك، وفي هذا اليوم كتب ورقة لأولاد بليـــل طلب منهم الدخـــول في حزبه والمـــوافقة لأمـــره ..."[18].

وعلى الرغم من خدمات هؤلاء الأعوان الواسعة، فإن الأجهزة الاستعمارية كانت تشك دوما في إخلاصهم. فقد كان كافينياك (Cavignac) غير مقتنع بخدماتهم، واتهمهم بقلة حرصهم وضعف صرامتهم، وكان يتأسف من كونه "لم يلق تركيا واحدا من رجال الحرب قادرا على أن يحمل رايته إلى القبائل الجزائرية، وبصحبة 300 أو 400 تركي، فيقطع 1000 أو 12000 رأس، إذ يرتجف له الإقليم ثم يعود إلى مركزه مثقلا بالغنائم"[19].

ويبدو أن بعض القادة الفرنسيين حاولوا التقليل من دور هؤلاء الأعوان، ولكن الوقائع والأحداث تبين خطورة هذه الفئة التي تسببت مما لا شك فيه في إضعاف المقاومة الشعبية خلال فترة القرن التاسع

عشر، وفي هذا يتحدث "هنري تشرشل" عن الاضطرابات التي لحقت بمقاومة الأمير عبد القادر من جراء الدور الخطر الذي قام به أحد الأعوان، حيث قال: "في الواقع إن الأمير عبد القادر كان في هذه المرحلة أكثر انشغالا بإخضاع رعاياه وبقائهم له من مقاومة الفرنسيين (...) ولكن الخيانة كانت تعمل عملها. فالشيخ عمر بن فراح، الذي كان من بني عياد، عرض خدماته على الفرنسيين لإرشادهم إلى المكان الذي تعسكر فيه الزمالة بالضبط. وفي الحال وضعت الخطة، وكلف الدوق، بتنفيذ الخطة..."[20].

إن مثل هذا الدور الذي قام به هذا الخائن نجدة مترددا في كثير من الأحداث التي عرفتها المقاومة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر[21]؛ فهذا النوع من الأشخاص هو الذي ألحق أضرارا كبيرة بالمجتمع والمقاومة، ويتحتم على الباحثين اليوم دراسة هذه الظاهرة، وتفكيك آلياتها ورصد الدور الذي أدته في خدمة الاستعمار.

ولكن يتضح لاحقا أن فرنسا التي كانت في حاجة إلى هؤلاء الأعوان، والتي مكنت لهم في الأرض، واعترفت لهم ببعض الحقوق، وتغاضت عن عيوبهم، بدأت تتخلى عنهم تدريجيا إلى أن أصبحوا في الثمانينات "أشباحا فقط لا تأثير لهم ولا قوة"، حسب تعبير أبي القاسم سعد الله.

والسبب في هذا التحول، هو أن فرنسا تمكنت من وسائل الدمار والعنف مع نهاية الستينات، وأصبحت تميل إلى تطبيق الحكم المباشر، ومن هنا بدأت تستغني شيئا فشيئا عن خدمات هؤلاء الأعوان بعد أن قضت حاجتها ونالت غايتها منهم.

وهكذا، يمكننا القول: إن ما أصاب المقاومة الجزائرية من اضطرابات وإخفاقات خلال القرن التاسع عشر، يرجع في كثير من الحالات، إلى دور هؤلاء العملاء، الذين كانوا من أكبر الخصوم المعارضين للمقاومة منذ البداية، ولعل الصفات التي كانت تسيطر على هذه العناصر هو الطمع وحب الكسب، وخدمة المصلحة الشخصية، بدون مراعاة لوازع ولا ضمير.

الهوامش:

1- كان النقيب لامورسيير (Lamoriciere) هو الذي أعطى دفعا قويا لهذه المصلحة التي كانت تسمى في عام 1833 "بالديوان العربي"، ثم غير اسمها إلى "إدارة الشؤون العربية" ابتداء من 1837. ولما ازداد العملاء في مساعدة الجيش الفرنسي في تقويض المقاومة فقد قرر "بيجو" في عام 1844 تأسيس بضفة رسمية المكاتب العربية. وقد أصبحت هذه المكاتب وسيلة فعالة في التقاط المعلومات وجمعها والدعاية للاستعمار. ففي سنة 1841 بلغ عددها في الجزائر 21 مكتبا، ارتفع عددها سنة 1870 إلى 49 مكتبا، ولكن بمجرد سقوط الإمبراطورية الثانية سنة 1870 حلت المكاتب العربية، لمزيد من التفاصيل حول المكاتب العربية انظر:

- V-FOUCHER: Les Bureaux Arabes en Algérie, Paris, Ed: Librairie International de l'Agriculture, 1858, p12 et suivant.

- X-YACONO Les Bureaux Arabes et l'Evolution des Genres de Vie Indigène Dans l'Ouest du Tell Algérois, Ed. LAROSE, 1953, p.10 et suivant.

2- WALSIN – ESTERHAZY : Notice Historique sur le Maghzen d'Oran, Oran Perrier, 1849, pp 233 – 234.

3- F.LAPASSET : Aperçu sur l'Organisation des Indigènes dans les Territoires Militaires et dans les Territoires Civils, Alger, Dubos, 1850, pp 3-4.

4- P.AZAN : Les Grands Soldats de l'Algérie, Orléans, imp. A.Pigelet et Cie [SD] (Cahier du centenaire de l'Algérie IV), p.14/

5- P.AZAN : Conquête et Pacification de l'Algérie, Paros, imp. De France, 1931, pp 19-20.

6- CH. RICHARD : Etude sur l'Insurrection du DAHRA (1845 – 1846), Alger, 1846, pp 185-186.

7- F-BIDAULT : La Vérité sur l'Algérie, Bougie, imp. Bizon, 1871, p.76.

8- يعود هذا الصراع بين العائلتين عندما قام أحمد باي عام 1830 بتزع منصب شيخ العرب من عائلة بوعكاز وإسنادها لعائلة ابن قانة. ومنذ ذلك الوقت بدأ الصراع على أشده بين العائلتين من أجل قيادة الصحراء. لمزيد من المعلومات حول هذا الصراع انظر :

L.CH.FERAUD : Le Sahara de Constantine, Notes et Souvenirs d'Alger ; Alger, 1887, p.285 et suivant.

9- الحاج أحمد باي : مذكرات أحمد باي، تعليق محمد العربي الزبيري، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص80-81.

10- إسماعيل العربي: المقاومة الجزائرية تحقيقت عن لواء الأمير عبد القادر، الجزائر ص 68. تشير الرسائل العربية في أرشيف وزارة الحرب الفرنسية بفانسان إلى ذلك التعاون في إقليم وهران، وهو تعاون الكراغلة ورجال المخزن وزعماء القبائل. فمثلا يعبر الباي إبراهيم عند مراسلته للحاكم العسكري في مقاطعته عن تفانيه في خدمة فرنسا. فيقول : "ونحن في مراعاتكم ليلا ونهارا..."، "وسترى منا في الخدمة ما يسركم ويسر غيركم..." (AMG)1H19, 1H34, 1H35, 1H36 (1835).

11- L-RINN : Histoire de l'Insurrection de 1871 en Algérie, Alger, A. Jourdan, 1981-p.23.

12- R-GERMAIN : La Politique Indigène de Bugeaud, Paris, Ed. LAROSE, 1955, p.251 et 287.

13- J-A. SEROKA : « le sud Constantinois de 1835 à 1855, in RA, 1912, p.378.

14- A.H. WARNIER : l'Algérie Devant l'Empereur, Paris, Challamel, 1865, p.7.

15- L.BAUDICOUR : La Guerre et le Gouvernement de l'Algérie, Paris, Sagnier et Bray, 1855, p.446.

16- R.GERMAIN : op. Cit, p.253.

17- وردت هذه الرسالة في كتاب يحي بوعزيزة: مواقف العائلات الأرسطقراطية من الباشاغا المقراني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1994، ص49.

18- المرجع نفسه، ص ص 60-61.

19- Cité par M.EMERIT : l'Algérie à l'Epoque de Abdelkader, Paris LAROSE, 1951, p.123.

20- شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص ص 211-212.

نلاحظ أن فرنسا جندت الأغوات، بكثرة ضد المقاومة، في كل مكان حتى تحقيقصل على المعلومات الكافية لتضع الخطط المدروسة وتقضي على الثوار بسهولة. فمثلا خلال أحداث ثورة المقراني، علم الفرنسيون بتمركز أحمد بومرزاق (شقيق الباشاغا المقراني) والثوار في جبل موقرنين بواسطة محمد بن بليل، فأخذوا يستعدون لمواجهة. انظر: يحي بوعزيزة، ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني والحداد)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص279.

21- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1992، ص394.